

ابن حزم والحب العذري *

راشال آريي
تعريب : محمد القاضي

نُحَصَّ « ابن حزم » القرطبي مفكر الإسلام الأندلسي الكبيرُ بدراسات كثيرة كشفت النقاب عن صروف حياته المتقلبة في القرن 5 هـ/11م في أكثر عهود الأندلس مأسوية ، كما أبانت عن الجوانب المتنوعة في آثاره بوصفه عالما نفسانياً ومهذباً للأخلاق ومنظراً لغوياً وفقهياً ظاهرياً ومؤرخاً للأفكار الدينية(1) .

ولقد وصلنا من مؤلفات « ابن حزم » حوالي اثني عشر كتاباً ، أعلقها بالتّمس : « طوق الحمامة في الألفة والآلاف » الذي وضعه في شبابه . وقد عمد « ابن حزم » في كتابه هذا — وهو دراسة حقيقية للحبِّ والخيّين — إلى بيان مفهومه للحبِّ . ولا شكَّ في أن هذا الموضوع لم يكن مستحدثاً في الأدب العربي . فقبل تأليف « طوق الحمامة » بأكثر من قرن وضع « الجاحظ » في الشّرق العبّاسي رسالة صغيرة في الحبِّ والنّساء وسَمَّها بـ « في العشق والنّساء » . وفي القرن 10/4 م نجد الموضوع نفسه في إحدى رسائل « إخوان الصّفاء » . وفي العصر ذاته أو يكاد تحدّث « المسعودي » أيضاً عن الحبِّ في «مروج الذهب » . إلّا أنّ « ابن حزم » استطاع أن يُجري إجراءً طريفاً مصطلح الحبِّ هذا فضمّنه عناصرَ سيرة ذاتية مطبوعةً بطابع الصّدق . فالكتاب يحدّثنا في هذا المؤلّف عمّاً عاشه وأحسّه في أعماق نفسه . وفي كتاب الاعترافات هذا نجد أنّ الشّخصيات التي تحوم حول

(*) Rachel ARIÉ : Ibn Hazm et l'amour courtois. Revue de l'Occident Musulman et Méditerranée. N° 40.2° semestre 1985. pp 75-89

والمقصود بالحب العذري هنا المفهوم الذي شاع أمره عند التروبادور في ق 12/6 مو 13/7 م والذي يمجّد المرأة ويوبّئها منزلة عليا .

(1) عن أبي محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم بقرطبة سنة 384 هـ/994 م . والمتوفى بمنى لشم سنة 456 هـ/1064 م . انظر المقال الهام ل.ر. آرنالدز: دائرة المعارف الإسلامية . الطبعة الجديدة ، ج III ص ص 814 — 822 .

« ابن حزم » إنما هي أندلسية عرفها الرّجل وعاشها : من أمراء ووزراء وعلماء وطلّاب علم ، روى لنا « ابن حزم » قصص حبّهم المتنوّعة . ونكاد نلمس في كلّ صفحة من نثره المرصّع بشعر واضح مطبوع الحقيقة النفسانية ودقّة الملاحظة ورهافة التأمّل . ولما كان « ابن حزم » متمسّكا بسنن « الأدب » فقد سعى إلى الجمع بين تهذيب القارىء وتسليته . وإذا كان غرضُ الأفكار مجرّدا ، توكّلت التّوارد الإبانة عنه ؛ وهي تمتاز بالشواهد القرآنية والأحاديث النبوية التي تزخر بها ثقافة الرجل الواسعة .

لقد قام « د. ك. بيتروف » (D.K. Pétrof) بتحقيق نصّ « طوق الحمامة » ونشره سنة 1914 بليدين . ثم ظهرت ترجمات له عديدة إلى لغات أوروبية من سنة 1931 إلى سنة 1952 (2). وقد حدّد « ليون بيرشي » (Léon Bercher) الذي ترجم « الطّوق » إلى الفرنسية سنة 1949 المخطّط العامّ للكتاب على هذا النحو : (أنظر التمهيد ص 13) : « إنّما وضع ابنُ حزم هذه الرّسالة الصغيرة في الحب ، والأحوال التي ينشأ فيها ، والآفات التي تعرّض له ، والسّلك الذي يفرضه على المحبّين ، يطلب من صديق له من ألميّة جاء يزوره في بيته بشاطبة (مقاطعة بلنسية) » . ويُعيّد ذلك نَبّه « إيفاريسست ليفي بروفنسال » (Evariste Lévi-Provençal) (1950، ص 335-375) عند مراجعته لـ « طوق الحمامة » إلى ما يضمّنه الكتاب من تفاصيل تتعلّق بالحضارة القرطبية في آخر أيام الخلافة الأموية . وقد أشار — بما عُرِف عنه من نفاذ بصيرة — إلى أنّ هذا الكتيّب المؤلّف سنة 1022/412 « يبسط من خلال صفحاته نظرية في المثالية الغراميّة » تلائم تمام الملاءمة تلك النظريّة التي يمكن أن نستخرجها من الدراسة المقارنة لبعض [الشعراء] التروبادور في جنوب فرنسا. وهم الذين ازدهر شعرهم الغنائي من مطلع القرن 12/6 م إلى نهاية القرن 13/7 م (إ. ليفي بروفنسال 1948، ص 293) .

والحقّ أن ما ضمّه « الطوق » من مفهوم للحبّ سام قد بدأ في الظهور منذ القرن 11/5 م عند عدد لا بأس به من الشعراء الأندلسيين . ويُعيّد ذلك ومن الجهة الأخرى لجمال البرانس شرع التروبادور — وهم شعراء وموسيقيون معًا — في التّعني بالحبّ العذري ، وهو صداقة عشقيّة ، وعبوديّة تلقائيّة للمرأة . إنّ تنظيم المقاطع الشعرية ، والحبّ المثاليّ والحبّ الشهواني عناصر موجودة في القرون الوسطى المتأخّرة في الحبّ الأندلسي والحبّ الأوكسيتاني . ولن يفوتنا أن نذكّر بأنّ الحملات الفرنسية على إسبانيا كثيرا ما اعتبرت مناسبة لتبادل مثير

(2) التّرجمات الإنكليزية لـ أ.ر. نيكل ، باريس 1931 ، أ.ج. آرري ، لندن 1953 ، الروسية لـ أ. سال ، موسكو ، لينينغراد 1933 ، الألمانية لـ م. فايسلر ، ليدن 1941 ، الإيطالية لـ ف. غابرييلي ، باري 1949 ، الإسبانية لـ إ. قارثيا قومز ، مدريد 1952 .

وقمازج ثقافي : فمنذ أواخر القرن 11/5 م أقام في ما وراء جبال البرانس عدد من الأسياد الأكيثانيين ، وضمن حاشيتهم عدد من التروبادور . ولذا فإننا لا نملك دحض البراهين التي جمعها أصحاب الأطروحة القائلة بوجود تأثير أندلسي في التروبادور . أما المختصون في دراسة القرون الوسطى فإنهم لم يقبلوا بتلك البراهين لتمسكهم بالأمل اللاتيني للشعر الأوكسيتاني . وليس من غرضنا أن نثير في هذا المقام تلك المسألة التي كثيرا ما وقع الخوض فيها ، والمتصلة بالعلاقات التي قد تكون وجدت بين الشعر الغنائي العربي والشعر الغنائي البرنسي (3) .

وليس لنا من غاية إلا إقامة توازن بين المثل الأعلى الأندلسي كما يظهر في « طوق الحمامة » وبين الحب الأوكسيتاني . ولنذكر بادئ ذي بدء لِمَا أشهر ممثلي الشعر التروبادوري : تمثل المرحلة الأولى. أغاني سيد عظيم هو قيوم « قيوم IX » كونت بواتي ودوق أكيثان ، وقد ولد سنة 1071/463 ومات سنة 1127/521. وتمتزع في أغانيه نغمة شهوانية بالتبعية العشقية التي ارتضاها الرجل عن طواعية .

وبين سنتي 1130/525 و 1150/545 تأتي مرحلة ثانية وسَمَّها بميسمه كل من الشاعر الجوال القاسكوني « سيركامون » (Cercamon)، والمغني المرتزق القاسكوني «ماركابرو» (Maracabrou) وسيد بلاي «جوفري رودل» (Jaufré Rudel). ونلمس عند هؤلاء الشعراء تطعا واحدا عميقا صادقا إلى العذرية. وقد اكتمل مذهب الحب العذري خلال مرحلة ثالثة امتدت من سنة 545 هـ / 1150 إلى سنة 1250/648 تقريبا ، وهي المرحلة المتراوحة بين جيل «برناردي فونتادور» (Bernard de Ventadour) الذي يجسم النموذج الكامل للتروبادور وجيل « أوك دي سان سيرك » (4) (Uc de Saint-Circ) .

(3) في هذه المسألة مراجع كثيرة ، لنكتف بذكر أ.ر. نيكل (1946) ، والتدقيق الممتاز الذي قام به أ. ليفي بروفنسال في :

Poésie arabe d'Espagne et poésie d'Europe médiévale, dans Islam d'Occident , Paris 1948 , p.p. 283-304

التي يحسن أن تكمل بقراءة (1954) P. le Gentil انظر أيضا مقال (1966) R. Lemay .

(4) لقد استفدنا من المراجع الكلاسيكية لـ A. Jeanroy (1927—1934) ومن التحقيقات المذكورة في قائمة المراجع . انظر الأعداد الخاصة من (1943—1947) Cahiers du Sud والكتاب المهم لـ R. Nelli (1963) . ويمكن الاستفادة من أطروحة دكتورا (1964) M. Lazar ومن طبعها (1966) . انظر أيضا مختارات (1946) G. Ribémont - Dessaignes .

تعريف الحب عند ابن حزم وعند التروبادور .

بعد أن نزلنا بإيجاز « ابن حزم » والتروبادور كلاً في عصره سنحاول أن نورد تعريفاً للحب كما ظهر في ما كتبوا .

لقد اهتم « ابن حزم » ببيان أن الحب « ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل » (الطوق ص 13) (5) . واستشهد بمن كان عاشقاً من الخلفاء الأمويين بالأندلس . وقد وصف الحب شعراً فقال :

جرى الحب مني مجرى النفس وأعطيت عيني عنان الفرس
لقد أفاض الناس في الحديث عن الحب إذ أنهم لم يتفقوا في طبيعته . أما ابن حزم فيقول :
« والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في أصل عنصرها الرفيع » .
ويستطرد قائلاً إن الحب « شيء في ذات النفس » ؛ فصح بذلك أن الحب « استحسان

روحاني وامتزاج نفساني » (م . ن . ص ص 15-16 ، ص 21) . ويفسر هذا الحب الذي يستولي على النفوس بما بين الأرواح من تناسب في القوى . إن الاندفاع التلقائي إلى الأسمى يطبع الحب عند « ابن حزم » بطابع أفلاطوني . وتبين في ذلك أثر «مأدبة» أفلاطون .

أما عند التروبادور فالحب العذري انجذاب غرامي ينزع إلى المماثلة بين نفسين شريفتين والتوحيد بينهما . وقد رأى بعض الدارسين في هذا الحب ضرباً من تصعيد الاندفاع الأولي وروحنته (هـ . دافنسون ، 1961 ، ص 147) . وبدءاً من سنة 1150/545 أخذ التروبادور يلحون على طبيعة الحب الروحانية الصرف . ولئن كانت الشهوة منفلة من عقاها فإن الحب العذري ينصاع لقواعد معينة . ولكي تتحقق العذرية (la cortezia) تحققاً تاماً فإنها تقتضي من الإنسان أن يلتزم سنة معلومة بأن يبدي « اعتدالاً » (mesura) ، أي نمط تصرف وآداب سلوك هي واجب إجتماعي مهم . وعلى الإنسان أيضاً أن يراعي متطلبات الفتوة (Jovens) وهي جملة من الخصال الأخلاقية والمروعة والكرم (م . لا زار ، 1964 ، ص ص 27 ، 28 ، 30 ، 33) .

ويرى « ابن حزم » أن الحب ينجر عنه تحوّل ، فهو « يزبن للمرأة ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة » (الطوق ، ص 29) .

(5) اعتمدنا في إحالاتنا على « طوق الحمامة » في تحقيق ل . برشي وترجمته .

والحبّ عند التروبادور يرقّ الطبع ف «قيوم IX» في سن الثالثة والأربعين حين شغف حباً
بسيده «شاتيلير» تحبّ ما هو مبتذل ؛ وأصبح الدون جوان الوقح رجلاً فاضلاً :
«فَرِحَ حَقّاً فَرَحَ حَبّاً .

وطالبٌ للمزيد
وبما أنّي أنشد الفرح الكامل
فإنّي موجّه كلّ جهودي
إلى أكمل النساء
وأجمل من يُرى ويُسمع»

(ج . ربيمون — ديسانى ، التروبادور ، 1946 ، ص 44)

وينشد «برناردي فونتادور» :

«إنّ من يعشق ولا يغدو خيراً البتة ، له على وجه اليقين قلب شرّير شقيّ » (أغاني
الحبّ . ط لازار ، 1966 ، الأغنية 6 ، البيتان 17-18) .

وللحبّ على العشاق في نظر « ابن حزم » حكم ماض . إنه « داء عياء ، وسقام
مستلذّ ، وعلةٌ مشتهاة لا يودّ سليمها البرء ولا يتمنى عليها الإفاقة » (الطوق ، ص 29) .
وقد التقى «ابن حزم» بفتى من بعض معارفه هو بمثابة السقيم الذي لا يريد فقدّ سقمه
لشدة ما « وحل في الحبّ وتورّط في حبائله » (م.ن ، ص 17) ، ويرى « برناردي فونتادور»
أن الحبّ سجن . (أغاني الحب ، 1 ، البيت 22 ؛ 36 ، البيت 51 ؛ 37 ، البيت 45) .
ويعتبر « ابن حزم » والتروبادور أنّ الشهوة نار مهلكة . وقد شبه المفكّر القرطبي العاشق
بفراشة أحرقتها النار (الطوق ص 35). ويؤكد « برناردي فونتادور» أنّه يعاني من الألام بقدر
ما يعاني « مَنْ يختصر وسط التيران » (أغاني الحب ، 12 ، البيت 65) . إن الهوى يملك
النفس من أقطارها، ويُترع الفؤاد غمّاً ، إلّا أنّ عذاب الحبّ عذب المذاق . ويُفسّر «ابن
حزم» هذا الجانب السلبي للحبّ في إطار تعريفه . فلا يكون المرء تعيساً في حبّه إلّا إذا
كانت روح المحبوب في شغل شاغل عن نداء نصفها الآخر لأنها مكتنفة الجهات ببعض
الأعراض الساترة (الطوق ص 21). وليس لـ « جوفري رودل» من رغبة « سوى هذا الحب
النائي » الذي يملك عليه نفسه . ويُشيد « سير كامون » ذلك الحب الذي أوقعه في
شراكه . ولم يعطه إلّا «التكال والغم» : وهو يرى أنّ

« لا شيء أغلى

من حبيبي الوحيد

ولا شيء يثير فيّ الأمل

غير ما لم أستطع الحصول عليه»

(في . ج . ريبمون — ديسانبي ص ص 54 و58) .

إن الانتظار يغيظ التروبادور ويدفعه إلى أن يبدع ويكون طاهرا . إن روعة أغاني «برناردي فونتادور» ناشئة عن الأذى الذي استولى عليه نتيجة لقساوة السيِّدة التي تعذبه . إن الحب المكبوت يدفعه إلى البحث عن المثل الأعلى .

المرأة والعاشق والغير .

ثمة في الحب العذري ثالث لا بد منه : المرأة والعاشق والغير . كان معيار الجمال الأنثوي في شعر الشرق الإسلامي وفي شعر الأندلس متمثلا في السَّماء ذات الشعر الفاحم الأبيض . وفي القرن الحادي عشر تغزل الأندلسيون المسلمون في أشعارهم بالمرأة الغيداء القصيرة الشعر (6) .

أما « ابن حزم » فقد كان شغوفا بما شغف بالشقراوات :
«إني أُحِبُّ في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك
الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه»
(الطوق ص ص 72-73 إحالة غير مضبوطة في المقال) .

وقد ذكر بعد ذلك إيثار الخلفاء الأمويين بقرطبة للشقراوات ، وأضاف أن المرأة الجيداء لم تكن تقدِّم دائما على ذات الجيد العادي ، وإنما الأمر مُرْتَبَن بالذوق الشخصي . وقلَّما نجد عند « ابن حزم » حديثا عن أعضاء المرأة . ويظل وصفه العام لمحبوته تقليديا صرفا حين يرى في ضوء القمر انعكاسا لبهائها . وهو يُعجب ببياض البشرة والخيلان وبالنَّمش الذي يزين الوجه ، وبمشمية المحبوبة المتأيلة وبقدَّها المهترِّ كالغصن (الطوق ص ص 73-77 ، 109 ، 154-155) . إنَّ المحبوبة حازت الفضائل كلها، وهذا ما نستنتجه من قصة وقعت له شخصيا، فقد شغف حبًّا بجارية فتية في السادسة عشرة من عمرها كبرت في بيت أبيه وظل يذكر أنَّها:

« غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائتها عديمة
الهزل منيعة البذل ، بديعة البشر مسيلة السَّتر ، فقيدة الذام قليلة الكلام ،
مغضوضة البصر شديدة الخدر ، نقية من العيوب دائمة القطوب ، حلوة
الأعراض مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود » (م.ن.ص 283) .

(6) في المثل الأعلى للمرأة في الشعر الشرقي في الجاهلية انظر J. Vadet 1968 ص 43. وفي مقياس جمال المرأة في الأندلس انظر H. Pérès 1953 ص.ص. 372 و400.

إن الصفات التي درج التروبادور على استعمالها تضيء على المرأة المحبوبة شيئا من الألق .
 ف «قيوم IX» يتغزل بامرأة « أشدّ بياضا من العاج » . ويتغنى شاعر مغمور بمجد حبيته «
 الأبيض كزنبقة ثلجية» « غريص لونها كوردة أيار . أشقر كالذهب شعرها الرائق » (التروبادور
 ص 36) . ومع ذلك يظل وصف الجمال الأنثوي مبهما وتقليديا صرفا؛ والشعراء الغنائيون
 الأوكسيتانيون إنما يتغزلون بنحافة القد ، وبهاء البشرة البيضاء كالثلج ، القرمزية كالوردة ، ورقة
 الحواجب ، وبياض الأسنان ، وتناسب أقسام الوجه تناسبا لطيفا . وهم لا يشيرون البتة إلى
 لون العيون ، ولا إلى ما تُبين عنه هيئة الوجه . إن المرأة المحبوبة عند التروبادور هي أكمل
 مخلوقات الله ؛ ويعتبرها « برناردي فونتادور » فوق نساء الدنيا جميعا (أعاني الحب ، 3
 الأبيات 53، 55؛ 6، الأبيات 21-24). ويمتنع التروبادور عن الفصل بين خصال المرأة
 المعنوية وصفاتها الجسدية . إنها امرأة عظيمة بمآلها من نُسب تليد ، وهي رقيقة رشيقة فطنة .
 وهي تحسن الجمع بين « الأحاديث العذبة » و « الأعمال الحميدة » . ويتصوّر التروبادور
 جمال المرأة موسوما بالرفقة والذكاء . إن محبوبة التروبادور تملك صفات أكمل النساء في
 الدنيا .

وعلى هذا النحو يحدّد « ابن حزم » سلوك العاشق : يشيح العاشق جهرا عن كل
 الحاضرين سوى محبوبه . ويبلغ به الأمر أن يحبّ أهل المحبوبة وقرباتها وخاصتها حتى يكونوا
 أحظى لديه من أهله ومن جميع خاصته (الطوق ص 45) .

ويرى « قيوم IX » أنه من الواجب على العاشق أن يحترم كل من يقيم مع محبوبته . ويعتبر
 « برناردي فونتادور » أنه على العاشق أن يكون بشوشا حتى مع المنافس أو العدو . إن
 المحبّ يبيد للمرأة توقيرا كبيرا . ف «أرنو دانيال» (7) (Arnaut Daniel) يقول : « إنني
 أكرم ألطف امرأة في الدنيا » . والحب يبعث في قلب العاشق كل الفضائل . وعلى العاشق
 الكامل أن يُعرض عن كل صنيع من شأنه ألا يروق المرأة . وتندرج واجباته من مجرد الاحترام
 من باب المجاملة إلى تقديم البراهين على تفانيه في الوله . ويشترط التروبادور على العاشق أن
 يمسك زمام عواطفه وغرائزه طبقا لسنن الحب العذري . ويحتاج المرء إلى بذل جهد كبير حتى
 يصبح عاشقا كاملا . فلا يغدو جديرا بهذه التسمية إلا من تخلص من كل غرور ذكري .
 وعلى العاشق أن يسعى إلى أن يفتن المرأة بشدوه حتى يكون موضع إعجابها . ويصرّح
 «برناردي فونتادور» إنه متدلّ في حب المرأة، وهو ملك لها قلبا وقالبًا ، وهو يبتهل إليها
 ويعبدها كما لو كانت إلها . ويستطرد قائلا :

(7) انظر R. Levaut ، 1910 ص 300 .

«لأنني مدين لمعشوقتي بقيمتي وبروحي معا ؛ ومن فضلها مرحي اللذيذ
وعاداتي الطيبة . فلو لم أراها لما أُحْبِيتُ ولما سعت البتة إلى أن أحظى
بالإعجاب» .

وربما شك العاشق أمر الحبيبة إذا ما أصابته بخيبة أمل كبيرة . وقد عبّر «قيوم IX» في
أناشيده الأولى عن أسفه لغدر النساء . وقد حدث لـ «برنار دي فونتادور» انقلاب مفاجيء :
فقد خاب أمله ، ومن ثمة أصبح سعيدا بفراق حبيبته واتهم النساء كلهن بالتقلب (أغاني
الحب ، 17 ، الأبيات 21-23 ؛ 31 ، البيتان 33-34) .
وتتحرك على ركح الحب العذري شخصيات ثانوية قليلة الأهمية .

فالصديق المساعد حسب « ابن حزم » صديق مخلص لطيف القول مأمون الخيانة كريم
النفس مبذول النصيحة . « ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عونا جميلا » (الطوق
ص ص 110-121) . وربما كان الصديق الوفي عاذلا في الوقت نفسه . والعاذل صديق قد
أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه ، فعذله أفضل من كثير من المساعدات . ولكنه خطب
شديد أن يكون العاذل زاجرا لا يفيق أبدا من الملامة (م.ن. ص ص 120-121) . ويصور
«قيرو دي بورناي» (Guiraut de Bornel) عند مطلع الفجر المثال الكامل للصديق الذي
يسلخ الليل يرعى الشاعر ومحبوته (التروبادور . ص 111) . إن المرء ليشعر بالارتياح إذ يستطيع
أن ييوح له بسعاده . إلا أن الصديق الذي تُطلعه أكثر على أسرارك ، غالبا ما يتضح أنه
مهذار . ولذلك فبعد أن نصح « قيرو » العاشق باتخاذ صديق يأتمنه على أسراهِ توقع المخاطر
المنجرة عن هذا الوضع ، وانتهى به الأمر إلى القول بأنه إن وُجد ثلاثة « رفاق » كان أحدهم
عادة « زائدا عن الحاجة » . وإذا حلت الثقة بين العاشقين وقع إدخال «السفير» الذي
خصّه « ابن حزم » بفصل قصير (الطوق . ص ص 88-91) . وينبغي أن يتخير العاشق
السفير بشيء كثير من العناية ، وأن يرتاده من بين أكثر الناس حذقا . وينصح « ابن حزم »
العاشق بأن يعهد بأداء الرسالة إلى إنسان حافظ للأسرار وفي للعهد فتوع ناصح . ومن لم
يتحل بهذه الصفات كان ذا ضرر على باعته . وقد كان المحبون في قرطبة يستعملون في هذه
المهمة النساء ذوات الصناعات التي تقربهن من الناس : كالطبيبة والحجامة والدلالة والماشطة
والنائحة والمغنية والكاهنة والصنّاع في المغزل والنسيج (م.ن. ص ص 89-91) .

وينتظر التروبادور السفير بنفاد صبر . وهذا «برناردي فونتادور» يكتب:

« أيها السفير رح عذوا

وحدث أجهل النساء

عن الحزن المير والعذاب

الذين أقاسيها حتى الموت » (التروبادور ، ص 95) .

وغالبا ما يكلف السفير بنقل تذكّار من الحُبوبة إلى العاشق. ودونك هذا النشيد لشاعر
غمر:

«أيها السّفير الناهض صباحا
إطو المراحل
هذه أغنية لصديقي
فاحملها إلى بلده » (م.ن. ص ص 37-38)

إنّ الموثمن على الأسرار يمكن أن يكون سفيرا ؛ وهو في هذه الحالة ممثّل العاشق والذائد
عنه في غيابه .

وكثيرا ما تحدّث الشعراء في الأندلس في القرن الحادي عشر عن شخص يضطلع في الجو
العذري بدور من يعكّر الصفو ؛ إنه الرقيب (هـ . بييس ، 1953 ، ص ص 418-419).
ويكون الحائل بين المتحابين تارة مالك المغنية وطورا الزوج الغيور. وحسب «ابن حزم» قد
يكون الرّقيب راغبا في استبانة حقيقة الأمر لا أكثر ، أو منافسا أو مأجورا. ويرى «ابن حزم»
أنّ الرّقيب من آفات الحبّ . وهو يروي عدة مرات طرق التّلفظ في استرضاء الرّقيب . وفي
الختام يحذّر « ابن حزم » القارئ من الفراق الذي ينشأ عن حضور الرّقيب . وكثيرا ما
يظهر في الشعر الغنائي الأوكسيتاني الرّقيب (gardador) في صورة المستأجر من قبل المنافس
أو الزوج .

إنّ الشخص الذي يضطلع بالدور الأكثر أهمية في الحبّ هو الواشي. وغاية هذا النّمّام
القطع بين المتحابين بالحيلة (الطوق ص ص 134-139). وقد أذان مغنّي الحبّ «ابن زيدون»
القرطبي — وهو معاصر لـ«ابن حزم» — في شعره قبح صنع الواشي (ذكره هـ . بييس ،
1953 ، ص 420). ويميّز « ابن حزم » بين ضربين من الوشاة . فالضرب الأوّل واش يريد
القطع بيني المتحابين فقط . وأكثر ما يكون الواشي فألى المحبوب . وليس له من غاية من
عمله الشّنيع إلّا الإضرار بالعاشق . وطورا يذكر الواشي للمحبيب أنّ ما يظهره الحبّ له من
الحبة ليست بصحيحة، وطورا ينقل الواشي أنّ هوى العاشق مشترك ، « وهذه التّار المحرقة »
على حدّ قول « ابن حزم ». وأمّا الضّرب الثاني من الوشاة فلا مبتغي له إلّا السعي للقطع بين
الحبيّين لينفرد بالمحبيب ويستأثر به ، ولا بدّ للنّمّام من الكذب . وما أحبّ «ابن حزم» كذّابا
قط . وهو يستهجن الوشاية مدعّمًا أقواله بأحاديث الرّسول (الطوق . ص ص
140-147) .

وفي الحبّ الأوكسيتاني أخذ الوشاة منذ سنة 1150/545 يضطلعون بدور مهمّ في الأساط العذرية؛ فلا همّ لهم إلا إفشاء أمر الحب الذي يهفو أصحابه إلى الكتمان المطلق ، ومن ثمة كان الوشاة يرومون القضاء على هذا الحب . ونجد هؤلاء الوشاة (lauzengiers) في مؤلفات «جوفري رودل» وفي أناشيد «سير كامون» وأناشيد «برنار مارتى» (Bernart Marti) الذي يوحّ إلى محبوبته بقوله : « لكم أريد أن ينجح مسعاي إليك ، قبل أن يحطّم حبنا الحساد والوشاة » . وتتحدّث نصوص كثيرة في حبّ التروبادور القدامى بين سنتي 1150/545 و 1250/648 تقريباً عن هؤلاء الوشاة وهم في أغلب الأحوال منافسون حساد (أ. جانروا A. Jeanroy ، 1934 ، ج II ، ص ص 109-112 ، ور. نيلي R. Nelli ، 1963 ، ص 129) . ولما كان هؤلاء الوشاة لا يخفون كرههم لسعادة الغير التي لا يطيقونها ، فإنهم يحولون بين العشاق وبين أن يتحابوا ، دون أن يسكبوا من ذلك خيراً لأنفسهم . ويتذمّر « برنار دي فونتادور » من هذا « الصنّف من التّاس المخادعين الماكرين » الذين يترصدون العشاق الحقيقيين . وما من سبب لحبّهم سوى الحسد . ولذلك فإنه على المحبوبة ألا تستسلم للخوف منهم . ويقول « برناردي فونتادور » في أحد أناشيدته : « إنني أتوسل إلى الحسناء التي أودعت فيها ثقتي بأن تتذكر هذا الأمر وألا تدع الشائعات تغيّرها أو تنحرف بها ، حتّى أقتل أعدائي غيرة » (أغاني الحب ، 3 ، الأبيات 30-32 ، 40 ، 5 ، البيت 23 . البيت 27) . ولما كان الوشاة لا يعيرون سمعة النساء وشرفهنّ اهتماماً ، فإنهم كائنات حقيرة على المحبوب ألا يأمن جانبهم . يقول « في دوسال » (Gui d'Ussel) : « عليك يا حبيبتى أن تنزليني منزلاً أرفع بكثير من هؤلاء المتسولين المخادعين » (أ. جانروا ، 1934 ، ص 112) .

أغراض الحب العذري

سنهم الآن ببيان أغراض الحبّ العذري . فما هي — بادىء ذي بدء — أسباب الحبّ ؟ يرى « ابن حزم » أنّ الحبّ الحسي يمكن أن ينشأ عنه حبّ حقيقي . وإذا وافقت العلاقات الجنسية أخلاق النفس تولدت المحبة « إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها » والحبّ عند « ابن حزم » يمكن أن يقع بالوصف دون المعاينة « فإنّ للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً » (الطوق ، ص 53) . ومن التروبادور شغف «جوفري رودل» حباً بكونتيسة طرابلس دون أن يراها بل بناء على شهادة حجاج انطاكية الذين وصفوا له محاسنها . وقد كتب فيها قصائد ، واشترك في حملة صليبية فركب البحر لرؤيتها . يقول :

« يا حبّ الأرض النائية

جسدي كلّه مشتاق إليك

وليس لي من عزاء
إلّاك

بسحر الحبّ العذب
في الرّوض تحت السجف

مع التي طال شوقي إلّاها » (التروبادور ص 52).

وبعد ، فإنّ نشوء الحبّ حسب «ابن حزم» تصحبه دوما أعراض . وهذه العلامات التي تُظهر الحبّ وتكشف سرّ العاشق مختلفة ، منها إدمان النّظر للمحبيب ، والإلصاق لحديثه إذا حدّث ، والدنوّ منه . وكثير من حركات العاشق ذات دلالة : منها تعمّده لمس يد المحبوب عند المحادثة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء . ومن علامات الحبّ كثرة الغمز الخفيّ والتلميح بالكلام ، ومراعاة الحبّ لمحبيه ، وحفظه لكل ما يقع منه . ومنها بهت يقع وروعة تبدو على الحبّ عند رؤية من يحبّ فجأة ، ومنها اضطراب يبدو على الحبّ عند سماع اسم محبوبة (الطوق ص 30-39). وقد أحسن « سيركامون » وصف ما يعتريه من اضطراب أمام حبيبته إذ قال :

« من فرط عَجَبِي حين أكون معها

عجزني عن البوح بمرادي

وعند انصرافي عنها يخيل إليّ

أني فقدت كل إحساس وكل معرفة » (التروبادور ص 58) .

ومن علامات الحب الحياء . ويتحدّث «ابن حزم» عن الحياء المركب الذي يكون في الحبّ فيحول بينه وبين التعريض بما يجحد للمحبيب . « فيتطاوّل الأمر وتتراخى المدة ويبلى جديد المودة ويحدث السّلوّ » (الطوق ص 276-277). وهذا «سير كامون» لا يجزؤ على قول شيء لحبيبته . ولربّما باح بحبه بعد أن يسليخ في العشق حولين أو ثلاثة (التروبادور، ص 59). ومن علامات الحبّ البكاء، وهو دليل على حرارة الحبّ وصدقه. وقد قال «ابن حزم» في هذا شعرا :

« دليل الأُسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يحمي ويسفح
إذا كم المشغوف سرّ دموعه فإنّ دموع العين تبدي وتفضح
إذا ما جُفونُ العين سالت شؤونها ففسي القلب داء للغرام مبرح »
(الطوق ص 47)

وعند التروبادور تكون الدموع سببا في شحوب العاشق ونحوه . ويقول « برناردي فونتادور » : « من ماء عيوني الجاري أكتب أكثر من مائة سلام أبعث بها إلى أحسن النساء

وأجملهن» . وليس لـ «أرنودي ماروي» (Arnaut de Mareuil) من حديث إلا عن دموعه (أ. جانروا، 1934، ج II، ص 103) .

ويكون عذاب الحب أيضا معنويا . وهو يقاسي كل أنواع المصوم . ويتحدث «ابن حزم» عن الجزع الشديد الذي يغلب على الحب وتنفسه الصعداء (الطوق ص 44-45). ويقول «برناردي فونتادور» إن الحب جعله متأرجحا كالسفينة الشراعية فوق الموج ، ويصرّح بأنه أكثر عذابا من «تريستان»:

« لي من الحب آلام مبرّحة

لم يذق مثلها « تريستان » العاشق

الذي قاسى ألوانا من العذاب

من جرّاء « إيزوت » الشقراء » (التروبادور، ص 94).

إن المرأة تبدو موصولة وصلا مكينا بكلّ ما يجعل الطبيعة جميلة . وقد قام « ابن حزم » وهو الأندلسي الذي عاش خلال القرن 11/5 بوضع المحبّين في إطار ريفي . وهاك الأبيات التي نظمها في هذا المعنى من «الروضيات» (8) :

«نعمنا على نور من الروض زاهر سقته الغواوي فهو يشي ويحمد
كأنّ الحيا والمزن والروض عاطرا دموع وأجفان وخد مورّد
(الطوق ص 43)

وعند التروبادور يكاد يكون الحديث عن الإطار المزهر أمرا إجباريا في شعر الحب . ومهما أوغلنا في القدم فإننا واجدون هذا المشهد جليا منذ أغنيتي «قيوم IX» العذريتين أو أغانيه الثلاثة ، كما نجده في قصائد «رودل» وقصائد «باير دوفيرني» (Peire d'Auvergne) . ويبدو التناسب عند «برنار دي فونتادور» على شيء من القوة . ففترة عيد الفصح الجميلة تحمل في نظره : « مع الخضرة اليانعة، أوراقا وأزهارا مختلفة الألوان؛ مما يجعل العشاق كلّهم مرحجين يغنون» (أغاني الحب، 17، الأبيات 1-8). ويحمل شهرا أفريل وماي معهما السعادة . فالشاعر وإن كان بعيدا عن محبوبته نجد السلوى في غناء الطيور وانبعاث الطبيعة اللذين يثيران فيه رمزيا الأمل والفرحة . ودونك ما يقول « برنار دي فونتادور » :

«حين يطلع العشب اللينع والأوراق، وتبرعم الزهرة على الغصن، ويرفع
العندليب صوته الثاقب التّيمير ويبدأ نشيده ، أفرح به وأفرح بالزهرة وأفرح
بنفسي وأفرح فوق كل هذا بخبييتي» (م. ن ، 20، الأبيات 1-8) .

(8) عن هذا الموضوع الشعري انظر H. Pérès ، 1953 ، ص ص. 161-166

ولبعض موضوعات الحبّ العذري طابع بالغ التّميّز ، وقد جعلنا أهمّها قوّة الحبّ .
ويذكرها « ابن حزم » بقوله :

«اعلم أنّ للحبّ حكما في الناس ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرًا لا يخالف
وحدا لا يُعصى ومُلْكًا لا يتعدّى وطاعة لا تصرف ونفاذا لا يردّ» (الطوق،
ص 69).

ويعبّر التروبادور عن سلطان الحب بشحوب الجبين والتأمل الحزين والارتجاف الذي يشبه
ارتجاف الورقة في مهب الرّيح . فهذا «برناردي فونتادور» وقد بلغت منه الحيرة مبلغا جعله
في أوج الشتاء على أتم استعداد للمسير في ريح الشمال لا يرتدي غير قميص ؛ فما الصقيع
عنده إلا أزاهير ربيعية (أ. جانرو ، 1934 ، ج II ، ص 104) .
وينبغي أن نربط بين الشّوق وقوّة الحب . فلكل عاشق شوق إلى اللقاء. وعندما يمتزج
شخصان في حبّ واحد تنشأ بينهما مراسلة . وقد أفرد «ابن حزم» للمراسلة فصلا قصيرا
يقول فيه :

«إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم الحب أنه قد وقع بيده ورآه لذة يجدها المحبّ
عجيبة تقوم مقام الرّؤية » (الطوق، ص ص 84-87) .

ويقدم لنا « ابن حزم » دليلا على قوّة الحبّ فيروي لنا قصة الحب الذي قطعّ يده بسكين
له فسال الدم واستمدّ منه وكتب به الكتاب أجمع (م.ن. ص ص 86-87). ويمجّد
التروبادور الشّوق الطويل الذي يروم تخليد الحلم السرمدى برؤية الحبيبة أو امتلاكها . وقد
كتب « جوفري رودل » سير بلاي الذي لم يكن له من غاية غير ملاقة كونتيسة طرابلس
أبياتا يقول فيها :

« أسيرُ منحنى الظاهر من رغبتى
دون أن تكون الأغاني وأزهار الزعرور
بالتّسبة إليّ شيئا أكثر من ثلج الشتاء
وظنّي — بل يقيني — أن الله
سيريني حبّي البعيد » (التروبادور ص 53) .

وكتّان السّر من القواعد الأساسية في الحبّ العذري . وقد التزم به « ابن حزم » التزاما
تامًا إذ هو لم يذكر أسماء الأشخاص الذين عرفهم وذكر مغامراتهم. ويرى « ابن حزم » أنّ
على المحب أن يكتم سرّه وأن يتجنب أن يفتضح أمره بالشحوب أو النظرات أو الدموع .
وكثيرا ما يكون سبب الكتّان في المجتمع القرطبي توقّي الحبّ على نفسه من إظهار سرّه لجلالة

قدر المحبوب (الطوق، ص ص 96، 97). وربما كان إفشاء السر سببا في قطع الحب . ويتلو باب طي السرّ باب الإذاعة . وفي مثل هذه الحالة يغلب الحبّ الحياء فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عدلا . ويرى « ابن حزم » أنّ ذلك داعية نفار المحبوب وضعف في السياسة من قبل المحبّ (الطوق ص 102-103) . والكتمان عند التروبادور أولى العلامات الدالة على احترام المحبوبة : إذ ينبغي على العاشق — إكراما لها — أن يحضنها وجدا مكتوما يسكن حناياه . والكتمان ضروري للحبّ خصوصا إذا كان قائما على خيانة زوجية . وعلى العاشق أن يخفي اضطرابه إذا ما راقبه أحد . فلا حياة للحبّ العذري إلا في الخفاء . وفي إذاعة الحبّ، على غرار ما يفعل الوشاة ، قُتل له : ولذلك كانت ثرثرة هؤلاء التّمامين المخادعين خطيرة . ومهما يكن من أمر فإنّ على العاشق المثالي أن يحفظ سرّ حبه حفظا مطلقا . ويصرّح « برناردي فونتادور » لحبيبتة بقوله : « إنني لن أفشي أبدا سرّ حُبنا . كوني على يقين من ذلك » (أغاني الحب ، 16، البيتان 47-48) .

و«ابن حزم» — شأنه شأن شعراء القرن 11/5 الأندلسيين — يقيي طي الكتمان اسم المحبوبة في الأخبار التي يرصّع بها «طوق الحمامة». ويتجلى الكتمان في استعمال ضمير المذكر للدلالة على المحبوبة؛ وهي تدعي حيناً «سيدي» وحيناً «مولاي» (الطوق، ص ص 119-121، 132-133، 156-157، 170-171، 248-249، 258-259) . ويكثر في الحب الأوكسيثاني استعمال العلامة (Le Senhal) وهي التكنية عن الحبيبة باسم مستعار . ويطلق «قيوم IX» أحيانا على حبيبتة اسم «ميدون» (midons) أي «سيدي»، ويشير إليها بعلامة مذكرة: Bon Vezi (9) . ويستعمل «رنار دي فونتادور» كنية «حسن الطلعة» (Beau-Voir) ليخفي اسم زوجة كونت تولوز «ريمون V» (Raymond V) (أغاني الحب، 9، البيت 41) . أمّا «ريمون دي فاكيراس» (Raimbaut de Vaqueyras) الذي نظم أناشيد جميلة في البروفونس في نهاية القرن 12/6 فإنه باح بحبه العاتي للفارس الجميل (Beau Cavalier) (التروبادور ص 179) .

إنّ موضوع الخضوع للحبيبة جزء لا يتجزأ من الحبّ العذري . ويعود هذا الخضوع الغرامي في الغزل العربي إلى الجاهلية . ولما كان «ابن حزم» ورثا للسنة [الأدبية] المشرقية فإنه يعظم من شأن قوة الحبّ المخارقة فيقول :

«ليس التذلّل في الهوى يستنكر فالحبّ فيه يخضع المستنكر»
(الطوق ص ص 106-107) .

ويستطرد «ابن حزم» قائلا :

«ولا يقولن قائل إن صبر المحب على ذلة المحبوب دناعة في النفس . فهذا خطأ . وليس سبه وجفاؤه مما يُعير به الإنسان ولا يبقى ذكره على الأحقاب» (الطوق ص 109) .

وليس ثمة في نظر «ابن حزم» مقام ألد وأشهى من مقام الحب المتذلل الخاضع المتضرع الذي يسأل حبيبه المغفرة . ويقول «ابن حزم» :

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة مُحبٍّ لمحبيه . ورأيت تحكّم الوزراء وانبساط مدبري الدول فما رأيت أشدَّ تبجحاً ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محبٍّ أيقن أنَّ قلب محبيه عنده . وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين فما رأيت أدلَّ من موقف محبٍّ هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء» (م.ن.ص ص 182-183) .

ويعلن التروبادور أنهم خدم المحبوبة . وشأن المحب الكامل أن يستجيب لرغبة المحبوبة وأن يجتنب كل ما قد يغيظها . ويقول «قيوم IX» : « لا يتيقنَّ امرؤ من التجاح في الحب إن لم يخضع لإرادته في كل أمر» (أغاني قيوم IX, VII ، ص 26). ويحتفل «برنار دي فونتادور» بما يستوجب الحب من إذلال فيقول : «مطلبي على الدوام شرفها وسعادتها، وسأكون تابعها وعاشقها وقتها» (أغاني الحب ، 9 ، البيتان 22-23) . ولا ينبجس الفرح الغامر الذي ينشأ عن الحب (وهو joy أو joi) إلّا أثناء هذا الاصطبار المديد(10) . فـ «برناردي فونتادور» مترع فرحاً . و «في دوسال» ينشد حبيبته قائلاً :

« لا مثيل لك

في منحى الفرحة (التروبادور ص 152)

ويترتب عن الخضوع الوفاء . يقول «ابن حزم» :

«إن الوفاء على المحبٍّ أوجب منه على المحبوب ، وشرطه له ألزم ، لأنَّ المحبَّ هو البادي باللصوق ... والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه» (الطوق ، ص ص 206-207) .

(10) يعرف أ. جانروا الفرحة joy بكونها «ضرباً من الحماس الصوفي سببه وموضوعه معا المرأة المحبوبة والحب نفسه» .

والتروبادور مسكونون بصورة الحبيبة . يقول « أوك دي سان سيرك » :

« ماذا سأفعل ؟ فما لي ، بعيدا عنك

في هذي الدنيا ، شيء يغريني أو يستهويني

ماذا سأفعل ؟ أنا الذي تغدو عنده أحزانا

كل الأفراح التي ليس منك مأتاها... » (التروبادور ص 217) .

ويؤكد « با يردى روجي » (Peire de Rogiers) لحبيته تعلقه بها ، فهو لا يعرف أن

« يحبّ إلّا ها » يقول :

« ما بيدي البتّة ألا أراك

ورغم أن النوى مازال عندك يقصيني

فليس لقلبي ولا للتي منك مناص » (م. ن. ص. 89)

ويخلص «برناردي فونتادور» في خدمة حبيبته وإن كانت صلفة أو صغرت له خذها
(أغاني الحب ، 15 ، الأبيات 33—36 ، 44 ، البيت 13).

ويخصّ « ابن حزم » حوادث الحب بأبواب كثيرة . وهذه النواحي السلبية ناجمة عن
تعريفه للحب . وعلى هذا النحو فإن :

« نفس الذي لا يحبّ من يحبه مكنتفه الجهات ببعض الأعراض

السّاترة والحجب المحيطة بها من الطبايع الأرضيّة ، فلم تحسّ بالجزء الذي

كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال

والحجبة » (الطوق. ص. ص. 20—21).

وأكثر أحداث الحب وقوعا العذل والهجر والبين والعذر والسلو . وقلة الصبر آفة إذ الحب لم
يجد بعد من المحبوب ما يدلّ على حبه . ويؤكد التروبادور أن الحبّ عذاب ، وهموم الحبّ لا
عدّ لها ولا حصر . وتصدّع شكاة « قي دوسال » على هذا النحو :

« إني على استعداد لأنظم مزيدا من الأناشيد

ولكنّ مضني القول المعاد

بأنّي أشكو الحبّ وأتهدّد

فقد دأب الثّاس كلهم على مثل هذا الصنيع » (التروبادور، ص.

158).

واللبّاس ، بما هو إحدى آفات الحب ، يتضمن حسب « ابن حزم » مراتب مختلفة . وفي
أغاني التروبادور تعلو نغمة كئيبية ، ففي قصائد هؤلاء الشعراء الغنائيين مراوحة بين الأمل
واللبّاس . ويشكو « ريمو دي فاكيراس » أمره قائلا :

« لا شأن عندي للشتاء والربيع
ولا للسماء الصافية وأوراق الأشجار

فنجاحي يبدو نكدا

وغدا فرحي كله ألما

وهوما صارت لذاتي

وها أملى أضحى يوثسني « (م.ن. ص 177).

ومن مخاطر الحب المتواترة عند « ابن حزم » الضنى . وهو يظهر حين يمنع الحب من إعلان حبه لسبب من الأسباب، أو يكون ممنوع الوصل إما بين أو بهجر (الطوق، ص ص. 264-271) . ويعرض الملل للثروادور . ف « برنار دي فونتادور » يطلق العنان لخيبة أمله بعد انتظار طويل لم يجده فتيلة (أغاني الحب، 30، البيتان 11-12، والبيتان 39-40، 38، البيتان 29-30) .

ومهما يكن حظّ العاشق من عزة النفس ونبلها ضئيلا فإن ما تبديه له المحبوبة من قساوة يلجته إلى السلو ، وهو موقف من المواقف التي صورها كتاب « طوق الحمامة » ونجد بادی ذي بدء السلو الطبيعي وهو المسمى بالتسيان يخلو به القلب ، ثم نجد السلو التطبيعي الذي فيه قهر للنفس . فالمرء الذي يظهر التجلد وفي قلبه أشد لدغا من وخز الأشفى ، ليس بناسٍ لكنّه ذاكرو « متجرّع مرارات الصبر » كما يقول « ابن حزم » لا (الطوق، ص ص. 274-275). ومن أسباب السلو عند « ابن حزم » الغدر ، وهو يدینه إن كان من فعل المحبوب، يقول :

«ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسيا أو متصبرا» (م.ن. ص ص. 290-291). ويشعر الثروادور بألم ممضٍ إزاء خيانة محبوباتهم لهم. يقول «بايردي بوسينيّاك» (Peire de Bousignac):

« إني يمست من النساء

ولن أثق فيهن البتّة

فمقدار ما كنت أحترمهن

لن يكون لهنّ عندي سوى الاحتقار « (الثروادور ، ص.97).

ونعثر عند « ابن حزم » وعند الثروادور معا على غرض مشترك هو الموت ، وقد خصّص « ابن حزم » باب مشحون أمثلة استمدّها من قصص حبّ معاصريه. والموت هو المصيبة الطبيعية التي تضع حداً للحبّ . وقد يقع لمن كان مفرط الرقة أن يبلغ به فرجه بعودة المحبوب حدّ الموت. وفي بعض الأحيان يستهلك الهوى الحبّ ، ويسبّب له الضنى ثم الموت.

وقد جعل التروبادور المحبين يعيشون قسرا في ضرب من الموت البطيء الناشئ عن قسوة المحبوبة . ويصف « برناردي فونتادور » حاله على هذا النحو :

« لقد قتلتي وبالموت أجيبها

وبما أنها لا تستبقيني فأنتي سأذهب

شقياً إلى المنفى في مكان لا أدريه (أغاني الحب ، 31 ، البيت 53 ،

البيتان 59-60).

الإيديولوجية الغرامية عند « ابن حزم » والتروبادور : مثالية وواقعية.

إنّ متابعتنا للبحث لا تحول دوننا ودون التأكيد على بيان هذا الخليط المكوّن من المثالية والواقعية الذي يعدّ أسّ الإيديولوجية الغرامية عند « ابن حزم » والإيديولوجية الغرامية عند التروبادور.

ينتهي « طوق الحمامة » بباين أخلاقيين : أحدهما في قبح المعصية والآخر في فضل التعفف (ص ص. 316-409). ولا تفسير لهذا المؤلّف إلا من خلال تأثير المذهب الظاهري. فلم يفتأ « ابن حزم » يذكّر بأنّها من الأحسن فيما يتعلّق بالعقيدة والشرع أن يقف المرء عند نصّ القرآن والحديث . ومع ذلك فإنّ مفهوم الحبّ الذي يظهر طوال « طوق الحمامة » مستمدّ من السنة الشرقية. ففي الشرق الإسلامي يقترن الحب الروحاني بصفة « العذري » التي تحدّرت من اسم قبيلة بدويّة من شمال الجزيرة العربية ظهر بين أفرادها عدد من العشاق المدلهين ومنذ القرن 8/2 ظهر ضرب من الأدب القصصي موضوعه الأزواج المتلازمون : قيس وليلى ، وكثير وعزة ، وخصوصا جميل وبشينة العفيفة.

ومنذ عقود ثلاثة شبه المستعرب الإسباني الكبير « إيميليو غارثيا فومز » (Emilio García Gómez) هذا الحب بكونه « تخليدا مَرَضِيّاً للرغبة »⁽¹¹⁾. ولقد كان رائد نظرية الحبّ الأفلاطوني فقيها ظاهريا هو « ابن داود »⁽¹²⁾ أصيل إصفهان المتوفّى سنة 294هـ/907 م. وقد ترك لنا رأس المدرسة هذا الذي قاد الحركة الظاهرية البغدادية بعد وفاة أبيه « داود بن علي » كتاب مختارات عذرية، هو « كتاب الزهرة » الذي ترجم تارة [بمعنى الرّيحان] (Le livre de la fleur) وتارة [بمعنى الكوكب] (Le livre de Venus)⁽¹³⁾. وفيه حوالي خمسين

(11) انظر El Collar de la Paloma, Madrid, 1952 ، ص . 41 .

(12) انظر مقال «ابن داود» في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة ، ج III ص ص . 707-708 ل ج.كل. فادي .

(13) عن « كتاب الزهرة » انظر L. Massignon ، 1975 ، ص.ص. 388 — 390 ،
والصفحات الجميلة ل . ج. كل. فادي عن ابن داود والحبّ العذري في l'esprit courtois en Orient ص.ص. 301 — 305 .

بابا كل واحد منها تصوير لحكمة مسجوعة ، وفي الأبواب العشرة الأولى عرض لضرب من آداب الحب ، وفي الأبواب العشرة الموالية ذكر للنتائج المختلفة للهوى والمصائب التي تنزل بالحبّين : كالتمايم والوشاة والفرقا؛ وفي الأبواب العشرة التي تلي تعداداً لما يعرض للهوى من عراقيل من قبيل السلو والهجران وما يترتب عنه من نتائج. وفي القسم الأخير يتحدث المؤلف عن القيم الأخلاقية ، وعلى وجه التخصيص عن إخفاء الحب وموته . وتتمثل طرافة « كتاب الزهرة » في سعي صاحبه إلى استخراج أخلاقية عذرية مستقلة عن التصوف ومركزة على الحديث النبوي : « من عشق فعف فكم حبه فمات مات شهيدا ». وعلى هذا النحو تظهر « أول منهجة للحب الأفلاطوني » حسب رأي « لوي ماسينيون » (Louis Massignon).

وفوق ذلك فإن « كتاب الزهرة » هو المصدر المكتوب الوحيد لـ (طوق الحمامة)، إذ أن « ابن حزم » قد اطلع على كتاب « ابن داود » كما تدلّ على ذلك فقرة من فقرات « طوق الحمامة » (ص ص 14-15) (14). ولما كان « ابن حزم » متشيعاً للمذهب الظاهري مدفوعاً بمثاليته ، فقد أثر الحب الطاهر . وفي الصفحات الأخيرة من « طوق الحمامة » يذكر « ابن حزم » فضائل التعفف ويدعو إلى كبح جماح الحب حتى لا ينحطّ. على أنه لا يرفض الحب الحسي؛ وتشهد على ذلك فقر عديدة من « الطوق ». وقد أفرد في رسالته عن الحب مكاناً مهماً للحديث عن المفاتن الجسدية والعلاقات الجنسية. ويرى « ابن حزم » أن الحواس طوق إلى الروح، ولا تتوطّد الصلات المتينة إلّا عبرها . أمّا الواقعية فهي طليقة العنان في النوادر التي توشى « طوق الحمامة » وهي نوادر يغلب عليها الفحش واللغة المباشرة والإجماض.

ونلاحظ في حب التروبادور العذري أيضاً تعايش السموّ والحسيّة. وقد رأى « روني نيلى » وهو من هو في معرفة الحب الأوكسياتني أنّ التروبادور رُوحنوا الشهوة بتحرير الحساسيّة من الحسيّة . ورغم سعيهم إلى جعل حبهم مثاليًا، فإنّ هذا لم يمنعهم من التعلّق بشخص المحبوبة الأرضي ومن تمجيد الشهوة الجسدية ؛ إنهم يطلبون ما وسّمه « جوفري رودل » بـ «حاضر الحب». وعلى الرغم من أنّ لغة التروبادور تحفل بالقوالب الجاهزة فإنّ الواقعية تنبجس في الجزئيات النابضة بالحياة وتتخذ في بعض الأحيان صوراً فجّة. ويرى « روني نيلى » أنّه ليس بالإمكان أن ننعت الحب البروفنسالي كما يتجلّى في شكله الغنائي

(14) ذكر «ابن حزم» في «طوق الحمامة» أنّ داود قد استشهد بقول أفلاطون، دون أن ينسبه إليه، الذي يذكر فيه أنّ الأرواح أكر مقسومة .

بأنه أفلاطوني محض ولا بأنه واقعي صراح . وقد نزع بعض الدارسين على سبيل المثال إلى التأكيد على قصائد « قيوم IX » الفاحشة التي تستمد مواضيعها — في واقع الأمر — من فولكلور قديم مُعادٍ للمرأة. والحال أن الشعراء أنفسهم قد احتفلوا بالحب الأكثر طهارة وبالشهوة الأكثر « طبيعية » بالمراوحة بينهما أو بالجمع بينهما ، دون أن ينكروا إيمانهم بالحب الرقيق (fin-amors) الذي ينجّر عنه ترهّد يطهر النفس (ر. نبلي، 1963 ، ص. 135، ص ص. 174—175).

وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف في نظرية الحب العذري عند « ابن حزم »
والتروبادور.

في نظرية الحب العذري نقاط يلتقي فيها ابن حزم والتروبادور. وستنوّي — في إيجاز — استخراج أوجه الاتفاق الأساسية بينهم . لقد اعتنى « ابن حزم » والتروبادور بالشعر الغنائي الغرامي. وبلغت هذا العالم الأندلسي الانتباه إلى أن الحب إنما يشرع في إبداء حبه لمحبيه بإنشاد الشعر ، وتلك طريقة تحبّه إلى نفس المحبوب . وقد بين « برناردي فونتادور » من خلال حياته وآثاره ما للشعر والحب مجتمعين من قوة عجيبة. إن شعر التروبادور مبشّر بالحب. ونجد أحيانا أن الأغنية، عوض أن تفتح بذكر جمال الرّبيع ، تبدأ بالتذكير بما للمحوبة من ملكة ملهمة ، وتنغلق غالبا بأبيات شعرية مهداة إلى الحبيبة . وقد كان الصدق في الهوى ملاماً على « ابن حزم » والتروبادور معا أقطار النفس. وقد توصّلوا إلى مفهوم للحب واحد.

ولكن تعذّرت البرهنة على وجود صلات قرى بين مفهوم الحبّ عند « ابن حزم » وعند التروبادور، فلا يمكن أن نغفل عمّا بينهما من أوجه شبه غريبة في المواضيع، وخصوصا في ظهور الشخصيات الثانوية ، واستعمال ضمير المذكّر للمرأة تشريفا لها (15).

أمّا أوجه الاختلاف بين هذين المفهومين للحبّ فإنّها تبرز في نواح جزئية . ولا بدّ في رأينا من لفت النظر إلى طرفة « طوق الحمامة » . فـ « ابن حزم » — وهو يشرّح الحب — لا يركّز البتة منهجا بعينه . وهو — على وجه اليقين — يميل إلى الظرف والوفاء بل وحتى التعفف. إلّا أنّه يترك الخيار في ذلك كله للمحبّين. إنّ الحب مغامرة تولد في كل تجربة. والأمر على نقيض ذلك في أوكسيتانيا حيث قُتّن موقف الحبّ من حبيبته تقنيا دقيقا. فغدا حظ النزوات ضئيلا في هذا الحب الذي يتمثل في التقيّد بوصفة عذرية تقيّدا كليّا. أمّا أضرب

(15) نساءل R. Nelli (1964 p. 97) عما إذا كانت عادة تذكير المحبوب التي استقرّت منذ القرن 11/5 [في الغرب] مجرد نقل للعادة العربية الموجودة منذ القرن 10/4 في الأندلس.

التعبير بل وحتى أضرب العواطف فإنها لا تكاد تختلف من تروبادور إلى آخر. وينبعث أحيانا من الشعر الأوكسيتاني شيء من الرثابة .

ومن خلال النواذر التي يوردها « ابن حزم » فإن الحب يقع عن طريق الحواس ، وعلى الخصوص العيون . وقد أُفرد في «الطوق» باب لمن أحب من نظرة واحدة (الطوق ص.56—59). وللجمال في هذا الحب منزلة أساسية. على أن هذا الحب إنما يشتد عوده بالعود والوفاء وتجربة الحواس. فكأن المرأة إذا غدت محبوبة تحلت بكل الفضائل . وليس من الضروري أن يكون المحبوب امرأة حرة . فأريستوقراطيو الأندلس وخاصة قرطبة الذين يحدّثنا « ابن حزم » عن قصص حبهم حديثا مفصّلا ، كثيرا ما يهيمون حبّا بإماء. وإتينا لنذكر الدور الذي اضطلعت به الجارية في الشعر الأندلسي . (هـ. بيبس، 1953، ص. 400 ، ص.430). أما المرأة في الحب العذري الأوكسيتاني فمتخيرة، ذلك أن المرأة التي يهبها العاشق حبه لا بد أن تتحلّى بما يجعلها جديرة بذلك الحب. ويعبر « قي دوسال » عن رأيه فيقول :

« ولكنني اخترتك أنت يا سيدتي
لأنك رفيعة المنزلة » (التروبادور، ص. 151).

إن حبّ التروبادور مختلف اختلافا كليّا عن حبّ القدامى المحتوم الذي يشلّ الإرادة . إنّه عبادة حقيقية للمرأة ، وطقوس الولاء والغزل محدّدة تحديدا صارما . ولدينا بعض المعلومات عن الوضع الاجتماعي لكثير من التروبادور. فنحن نعرف أن بعضهم كان ينتمي إلى طبقة الفرسان الدنيا أو طبقة التجار. وقد كان « أرنودي ماروي » كاتب دواوين ، وبعض التروبادور متحيّرون من أسر متواضعة جدا شأن « قيرودي بورناي » و« أولك دي سان سيرك » ، أما « برناردي فونتادور » فقد كان أبوه خبّاز قصّر فونتادور. ولا بدّ لنا من أن نشير إلى أن شعر هؤلاء الذين عاشوا في ظلّ الأسياد قد وجّه إلى زوجات هؤلاء الأسياد الشرعيّات . إنّ محبوبة التروبادور يجب أن تكون بالضرورة متزوجة (16). والأمر عند « ابن حزم » على نقيض ذلك ، فلا محلّ عنده للخيانة الزوجية . وهو يدينها إدانة صارمة لأنّ الحبّ في هذه الحالة يفقد طهارته . وقد رأينا أنّ الحبّ في نظر « ابن حزم » التقاء بين روحين فرّق بينهما في عهد سالف ، وهيئتا للتلاقي من جديد . ففي الزنا « من إباحة الحرم وإفساد

(16) ويجب أيضا أن يكون العاشق — التروبادور — أعزب مبدئيا إذ هو يمثل « الشباب ». وقد لخص André le chapelain في كتابه De Amore حوالي سنة 1185/581 تفكير التروبادور الغرامي كله . فهو يحتقر الزواج لأنّه لم يكن غالبا — في الأوساط الأرستوقراطية في عصره — مسبوقا بغزل حرّ صادق يمكن أن يوجد بين الزوجين وحدة عاطفية .

التسل والتفريق بين الأزواج... ما لا يهون على ذي عقل أو من له أقل خلاق « (الطوق ، ص. 365).

وكذلك الشأن في الغيرة . فنحن واجدون لها [عند « ابن حزم » والتروبادور] مفهومين متقابلين تقابلا كليًا . وقد كتب « ابن حزم » إن « غيرة شديدة رُكبت في » . وهو يرى أن الغيرة إنما هي علامة الحب (م. ن. ص. 325) ، وهي متأية من الشعور البالغ الحدة بالشرف عند العرب (17) . أما التروبادور فيرون أن الغيرة تنشط الحب . ولا يرى التروبادور ضيرا في أن يتغزل غيره بحبيته : « إن كان لحبيتي عشاق سواي ، فلن أواجهها لذلك بتجهم » (في أ. جانروا ، 1934 ، ج II ، ص 112).

والموت حبًا موضوع فرعي آخر يقوم شاهدا على التقابل بين « ابن حزم » والتروبادور . فكثيرا ما أشرف « ابن حزم » على الموت ، إذ أنه عاش في عهد اضطرابات « الفتنة » زمن « ملوك الطوائف » . لذلك يتحدث عن الموت حديثا مأسويًا : فالحب مرتبط بالموت . أما الشعراء الأوكسيتانيون فالموت عندهم رؤسم أدبي . فالحب يموت من كثرة التهنّد والألم . ولما كانت المحبوبة تبعث بقسوتها اليأس في قلب المحب ، فإنه يتألم حتى الموت . وقد عبّر « برناردي فونتادور » في أغانيه مرارا عن هذه الفكرة الغرامية ، كما في قوله : « إن قلبي يتفطر حزنا ، حتى إنني أشرف على الموت وأكاد أقضي نحبي » (أغاني الحب 42 ، البيتان 76—77). ولولا مساعدة محبوبته لهلك . أما الموت الحقيقي فلا ورود له البتة . وينبغي على المحب أن يقبل الانتظار ، وأن يظل ناذرا نفسه لمحبوته وإن كانت لا تحبه أو أنه راودته فكرة هجرانها.

وفي مسألة العلاقة بين الدين والحب تقابل أيضا بين « ابن حزم » والتروبادور . إذ أن « ابن حزم » لا يبيّ يعزّز مفهومه للحب أثناء حديثه عن طبيعة الحب وتطوّره بالإيكة القرآنية « هو الذي خلقكم من نفس واحدة » ، ويضيف بأن الله « جعل علّة السكون [الذي يجده آدم في حواء] أنها [أي حواء] منه [أي من آدم] » (الطوق ص. 17). ويقطع النظر عن تفسيرات الحب والتوادد المأجنة ، يضم « طوق الحمامة » بيانات عن الشرع الإسلامي . فالإسلام حاضر في الكتاب حضورا دائما. ويكشف فيه « ابن حزم » عن حرصه على البقاء في حيز الإسلام وذلك بالاستشهاد بالقرآن والحديث النبوي. فالحب يتخذ المؤمن

(17) يعرف ابن حزم في «كتاب الأخلاق والسير» الغيرة بأنها «خلق فاضل متركب من التعدة والعدل. لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وأن يتعدى غيره إلى حرمة» .

مثالا . والوفاء للمحبيب يحسن الطبع ويسمو به . والتذلل في الحبّ يكرّم صاحبه كما يكرّم التذلل لله العبد الورع . وعلى نقيض ذلك ، فإنّ حبّ التروبادور منفصل عن الأخلاق المسيحية ، وله أخلاقية خاصة به . فالحبّ البروفنسالي يصوّر على أنّه « وسيلة » لتحقيق كلّ الكمالات الروحية . ولقد أدركت الكنيسة ذلك إدراكا جيّدا وأبدت منذ البدء اعتراضها على الشعر العذري وأدانت الأخلاق الشهوانية التي يروّجها . ورغم ما قام به الشاعر التروبادور « مونتاناقول » (Montanhagol) من بسط لميول أخلاقية النزعة في أغانيه الممتدة من سنة 1233/631 إلى سنة 1258/655 ، ورغم ما ذكره فيها من تمجيد للحبّ الأفلاطوني فإنّ الكنيسة واصلت نبذها للأدب العذري وفي سنة 1277/676 حرّم أسقف باريس « أرناست تومبيي » (Ernest Tompier) رسميا على رؤوس الملأ هذا الأدب لما يتصف به من هرطقة .

إنّ الملاحظات القليلة التي أوردناها في هذه الدراسة المتواضعة لم تكن تهدف إلّا إلى تقديم حصيلة لأبحاثنا والتمهيد لمعرفة الصّلات بين « ابن حزم » والحبّ العذري [في الغرب] معرفة أكمل .

قائمة المراجع

- DAVENSON (H.) *Les troubadours*, Paris, 1961.
- DAJEANNE (J.M.L.) éd., *Poésies complètes du troubadour Marcabru*, Toulouse, 1909.
- IBN HAZM, *Le Collier du Pigeon, ou de l'amour et des amants*, texte arabe et traduction de L. Bercher, Alger, 1949.
- JEANROY (A.) éd., *Les Chansons de Guillaume IX, duc d'Aquitaine*, Paris, 1913.
- JEANROY (A.) éd., *Les Poésies de Cercamon*, Paris, 1922.
- JEANROY (A.) éd., *Les Chansons de Jaufré Rudel*, Paris, 1924.
- JEANROY (A.) *Les origines de la poésie lyrique en France au Moyen-Age*, 3^e éd., Paris, 1927.
- JEANROY (A.) *La poésie lyrique des troubadours*, Paris, 1934, 2 t.
- LAVAUD (R.) «Les poésies d'A. Daniel», in *Annales du Midi*, XXI, 1910.
- LAZAR (M.) .., *Amour courtois et Fin'amors*, Thèse de Doctorat, Paris, 1964; édité sous le titre *Bernard de Ventadour: Chansons d'amour*, Paris, 1966.
- «Le Génie d'Or et l'homme méditerranéen» in *Cahiers du Sud*, Marseille, 1934.
- LE GENTIL (P.) *Le virelai et le villancio. Le problème des origines arabes*, Paris, 1954.
- LEMAY (R.) «A propos de l'origine arabe de l'art des troubadours», in *Annales E.S.C.*, septembre-octobre 1966, pp. 990-1011.
- LÉVI-PROVENÇAL (E.) *Islam d'Occident*, Paris, 1948.
- LÉVI-PROVENÇAL (E.), «En relisant le Collier de la Colombe», in *Al-Andalus*, vol. XV, fasc. 2, Madrid 1950. «L'Islam et l'Occident», in *Cahiers du Sud*, Marseille, 1947.
- MASSIGNON (L.) , *La Passion de Hallâj*, rééd., Paris, 1975.
- NELLI (R.) *L'érotique des troubadours*, Toulouse, 1963.
- NYKL (A.R.), *Hispano-Arabic poetry and its relations with the old provençal Troubadours*, Baltimore, 1946.
- PÉRŠ (H.) *La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle*, 2^e éd., Paris, 1953.
- RIBÉMONT-DESSAIGNES (G.) *Les Troubadours*, Fribourg. 1946.
- VADET (J.Cl.) *L'esprit courtois en Orient dans les cinq premiers siècles de l'Hégire*, Paris, 1968.